بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

شكا بعض الناس في أعقاب معارض الكتب، من كثرة الإقبال على الكتب الدينية والتراثية، تأليفاً وقراءة. وقد يكون الإقبال على هذا الصنف من الكتب سابقاً لغيره من الأصناف، لكنه ليس مسرفاً كما تذهب الشكوى، فحجم التأليف والنشر في مجال الدرس القرآني ما يزال قليلاً جداً قياساً إلى أمة كبيرة في أعدادها وطاقاتها، وقليلاً قياساً إلى «الكتاب المقدس»، الكتاب الأكثر نشراً ودرساً في العالم. ومع إقرارنا بالقلة النسبية للدرس القرآني، لا نستطيع إلا أن نسلم بأن هذا الدرس أصبح حركة في العصر الحديث، ولا سيما في القرن العشرين الميلادي.

وقد جهد المؤلف في استقصاء كتب التفسير في القرن الماضي، فدرس تفاسير كثيرة تتعدّد في توجّهاتها، كما تتعدّد في أمصار أصحابها، فكان منها الذائع المشهور، ومنها الخافت المغمور، ومنها بالطبع ما هو ذائع هنا وخافت هناك، فكان تتبع تلك التفاسير على تعددها عملاً مجهداً يحمد المؤلف عليه. ومع توخي الاستقصاء غاب عن الكتاب مجموعة من التفاسير الحديثة، بعضها لم يقع عليه المؤلف، وضاقت الطبعة الحاضرة عن بعض آخر، فكل ذلك قابل للاستدراك في جزء ثانٍ أو طبعة لاحقة.

وغاب عن الكتاب أيضاً مجموعة أخرى من التفاسير كانت جديرة بالعرض والدرس، ويبدو أن المؤلف آثر تجنبها خشية الخوض في جدال مذهبي قد ينجم عنه ضرر على وحدة الأمة.

وقد عني المؤلف بترجمات المفسرين، وتبيان مناحيهم وتوجهاتهم، ولم يقتصر عمله على العرض والوصف، وهذا مهم على كل حال، وإنما جنح إلى التحليل والمناقشة والنقد والتقييم. ولعله يقدم لنا، في مقبل الأيام، نظراً شمولياً إلى التفاسير بوصفها حركة تأليف، فيبين لنا، بعد أن عرفنا خصائص كل تفسير، خصائص الحركة في عمومها، وماذا يميزها عن حركة التفسير في العصور الخاليات، ومدى تأثير التحديات المستجدة في طبع التفاسير الحديثة بطوابع عامة لم تكن لتظهر من قبل.

هذا عن الكتاب الذي يقدمه عنوانه الصريح، خلافاً لكتب كثيرة أضحى النسب بينها وبين عنواناتها واهياً أو معدوماً. أما مؤلفه الذي اكتهل، فقد عرفته في أواخر السبعينات من القرن الخالي زميلاً على مقاعد الدرس في الجامعة، فانعقدت بيني وبينه صداقة لا تبلى. كان الأستاذ عبد القادر محمد صالح شعلة من النشاط، كلما لقيتَهُ اطلعتُ على كتب جديدة يتأبطها، وكلما دخلتَ معه في حوار خرجتَ بشذرات لم تكن عندكَ من قبل.

كان بيننا جوامع كثيرة، لكن لم يكن بيننا تطابق في الآراء، ولا تماثل في التوجهات، فما كان التباين ليحدث بيننا جفوة أو فتوراً، بل على العكس، كان من شأن ذلك أن يديم الحوار بيننا، بغرض التفكير والتمحيص.

كانت نظرته بعيدة دوماً، تتجاوز العرض إلى الجوهر وكان منفتحاً إلى أبعد الحدود، متقبلاً للآخر وإن وقف على الطرف النقيض، ليس بسبب تردّد في داخله أو تخلخل في بنيته الفكرية، ولكن لإدراكه العميق بأن أحداً، أي أحد، ليس بوسعه ادعاء امتلاك الحقيقة بعد اختتام الوحي، وأن الحوار البناء هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

كانت عندنا طموحات علمية كثيرة، في التأليف والتحقيق المشترك، ومرت السنون، ولم نفرغ لإنجاز شيء منها، فأراد ـ وقد انتهى من تأليف هذا الكتاب ـ أن يحمل اسمي مع اسمه، ولو على سبيل التقديم، على أمل أن نرفد المكتبة العربية بكتاب مشترك في مقبل الأيام. وإني إذ أفخر بأن أقدم للمكتبة العربية هذا الكتاب المهم، أفخر أكثر بأن أقدم المؤلف زميلاً وصديقاً وأخاً، وإنساناً.

د. محمد صالح الآلوسي

كلية الآداب ـ حلب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على محمد العبد الرسول المبعوث هدى ورحمةً للعالمين، فكان نعم المبلغ للرسالة، ونعم المؤدي للأمانة، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم... وبعد،

برهان محمدﷺ القرآن، وبرهان الأنبياء المرسلين قبلَهُ العصا التي تشق البحر، أو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

إننا لو أردنا أن نشهد الآن معجزتي موسى وعيسى عليهما السلام بأم العين لما استطعنا لأنهما رسولان أُرسِلا إلى قومهما فقط..

وهنا يجب الملاحظة: أن معجزة موسىعليه السلام العصا، ومنهجه التوراة، وأنَّ معجزة عيسىعليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ومنهجه الإنجيل... والسرُّ في ذلك أنَّ معجزة الرسول وبرهانه الدّامغ يكونا مناسبين للبيئة الاجتماعية المُرسَل إليها... ففي عهدي موسى وعيسىعليهما السلام ازدهر علم السحر، وازدهر علم الطّب، فجاءت عصا موسى لتلتهم ما كاد السحرة، وجاءت معجزة عيسى لتخرسَ دعواهم التقدم في علم الطب.

ولكن كانت معجزة محمدﷺ القرآن ومنهجه القرآن أيضاً.

• المعجزة والمنهج: الكتاب «القرآن»:

الكتاب «القرآن» كان الحجة العقلية، والبرهان الأساس الذي قدّمهُ محمد ﷺ وثيقة بيان للبشرية ـ للعرب في جزيرتهم ـ وللعالمين من بعدهم.

تحدى القرآن العربَ أن يأتوا بمثله فسقطوا في التحدي، وتحداهم بعشر سور من مثله فعجزوا، وتحداهم بالسورة الواحدة الوحيدة من مثله فعجزوا أيضاً... وهذا لَعَمْرُ الحق ذِروةُ التحدي لا سيما إذا كان موجهاً لأساطين شعراء العرب والعربية، ولأرباب الكلمة والبلاغة ساعتئذٍ... وما زال التحدي مستمراً حتى يرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومن عليها.

وقد يسأل سائل: ما السر في كون الكتاب «القرآن» معجزة لمحمد رسول اللهﷺ؟

الحق: أن المعجزة العقلية ثابتة خالدة، في حين أن المعجزة الكونية فقط ـ كأن ينشق البحر، أو ينفلق القمر، أو يُحيَ الموتى ـ مؤقتة، فهي حجةٌ على من شاهدها أو نُقِلَت له نقلاً متواتراً أفاد اليقين.

لذا كان القرآن المعجزة دليلاً عقلياً على صحة دعوى محمدﷺ بالنبوة والرسالة، بل كان القرآن الناقل بالتواتر معجزتي موسى وعيسى ومعجزات الرسل الآخرين، فتوجب على من آمن برسالة محمد وصدق بكتابه المعجز الإيمان بمعجزات الرسل السابقين التي حفظها لنا القرآن.

ولم يكن القرآن حافظاً لأخبار الآخرين من الأقوام، ولا حافظاً لمعجزات المرسلين السابقين، إنما كان كتابَ هدايةٍ ورحمةٍ للعالمين وفيه خير العباد، ونُظُمُ حياتِهم في الأولى والآخرة.

لهذا ولغيره كان القرآن محلَّ اهتمام عظيم من المسلمين في صدر الدعوة الإسلامية، وازداد الاهتمام فيما بعد، وكُتبت المؤلفاتُ والدراسات حولَهُ، فمن هذه الدراسات: اللغوية بأنواعها البلاغية والصرفية والنحوية..

ثمَّ كان علم القراءات المترافق مع علوم التفسير... بل لا أظنُّ نفسي مجانيَاً الحقيقة، ولا مبتعداً عن جادة الصواب إذا قلت: إن كلَّ علوم القرآن نشأت بفترة واحدة يتقدم هذا العلم على غيره خطوة أو أكثر، إلّا أن البحث في علومه وأسراره كانت محل جهد عظيم، ونظرٍ مستمر من قبل العلماء الذين بذلوا ما بذلوا من جهود قلَّ نظيرُها...

ولم تمضِ فترةٌ غير طويلة حتى وجد المسلمون أنفسهم يمتلكون زاداً معرفياً ثقافياً ومرجعية شاملة مؤسسةً على الدرس والتمحيص لا على الهوى والانفعال... كل ذلك كان الفضل فيه للقرآن الذي أثَّرَ في النفوس والعقول: هذّب الأولى وربّاها فإذا بالعقل ينطلق قوياً متحركاً مبدعاً ليضخّ في المكتبة الوليدة ثراءً علمياً لا مثيل له، فإذا بهذه المكتبة تصبح الرائدةَ في العالم في فترة قصيرة جداً.

فكانت التفاسير القرآنية أحدَ أعمدةِ هذه المكتبة.

وقد تطوّر التفسير الذي ظهرت بواكيرُه منذ صدر الإسلام الأول حتَّى ظهرت دراسات فذة، وأعمال ناضجة على يد المفسّر القيرواني في إفريقيا، وعلى يد ابن جرير الطبري ثم ما تلاهما من دراسات الزركشي في «برهانِه» والسيوطي في «إتقانه» وما بينهما ظهرت كتبٌ وتفاسير عدة أسهمت قديماً، وما زالت تسهم حديثاً في تجلية الفهم، وإيضاح ما يحتاجُ إلى توضيح من الكتاب الكريم.

ووفق سنن الله في الحياة، وما اقتضَتْه من تطورات ثقافية واجتماعية ومن صعدات، وهبطات، وارتفاعات ووهَدَات، فتجمد البحث اللغوي، وتقيدتِ اللغة في فترة من الفترات بأسر القوالب الجامدة. وبحكم عظمة هذه اللغة الشريفة فإنها سرعان ما نفضت عنها الغبار، فانطلقت حيوية قوية في حياتنا المعاصرة. فظهرت دراسات وتفاسير قرآنية ذات اتجاهات مختلفة لاختلاف الينابيع التي يستقي منها أصحابها. فانبرى بعض العلماء المخلصين دارسين للتفاسير السابقة واللاحقة، منقبين، وممحصين، ومصنفين لاتجاهات هذه الأعمال العلمية التفسيرية، وقدموا بذلك الفائدة الكبرى، والنفع الجم، فجزاهم الله خيراً عنّا وعن الكتاب الكريم «القرآن العظيم». أخص من هؤلاء بالذكر «الدكتور محمد حسين الذَّهبي» صاحب «التفسير والمفسرون». هذا الكتاب كان بحثاً تفصيلياً في نشأة التفسير ومذاهبه وتطوراته. وفيه درس التفاسير القديمة والحديثة التي كان آخرها حسب كتابه «تفسير المراغي» المتوفى عام 1945م.

وقد أردنا من بحثنا هذا أن يسهم إسهاماً متواضعاً في خدمة الكتاب الكريم، واللغة العربية الشريفة، إذ دَرَسْنا التفاسير الحديثة بأشهرِها، ولا ندعي الإحاطة بها... فتناولنا عدداً كبيراً مهماً من التفاسير التي لم تكن قد وردت في دراسة العلامة الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ، إذ أن كتابهُ قُدّم لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ في علوم القرآن سنة (1946)[1]. وهذا لا يعني أن عملَنا لم يذكر بعض التفاسير التي وردت في «التفسير والمفسرون» للشيخ الذهبي... لا بل تطرقنا إلى بعض التفاسير الحديثة، وهذا ليس من باب الاستدراك على المؤلف، إنما أردنا أن نسلط الضوء على بعض التفاسير الحديثة لأن بعضها كان يؤثر في الآخر... ثم إننا أكثرنا بعض الشيء من الاقتباسات من هذه التفاسير كي تزداد صورتها إشراقاً في ذهن الباحث القارىء. ثم إن عملَنا اقتصر في دراسته على الدراسات القرآنية والتفاسير الحديثة..

غير أننا قدمنا لهذه الدراسات بفصول عن تاريخ القرآن وعلومه، لتشتمل على العلاقة بين القرآن ولغة العرب والأحرف السبعة، وكيفية نزول القرآن، وأسباب نزول القرآن منجماً، والدواعي الباعثة لمعرفة أسباب النزول، ثم تناولنا ظاهرة الوحي بالدراسة منوهين إلى أنواعه، وكيفية نزوله ومناقشة الشُبه التي ساقها بعضُ المستشرقين في هذه المسألة.

ثم تمَّ تناولُ نشأة علوم القرآن والدراسات القرآنية التي وضَّحت الفرق بين مكيّة ومدنيّة... وبعدئذ فرقنا بين مفهومي التفسير والتأويل، ثم سرنا ملاحقين مراحل تطور علم

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 9).

التفسير في عهود الرسول ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم، ثم قادنا البحث إلى أنواع التفاسير الحديثة المنتمية إلى اتجاهات ومدارس عامة اجتماعية، وأدبية، ونحوية وبلاغية وصرفية، وحداثية، وصوفية وعلمية، أو تلك التي فسرت القرآن بالقرآن، أو التي اختصت بالأحكام الفقهية كتفسير أحكام القرآن للسايس والصابوني.

لقد بذلنا جهداً في بحث هذا الموضوع الذي تناول هذه التفاسير، محاولين قدر الإمكان دراستها وفق قواعد وعناصر محددة، كنا نخرج عليها أحياناً لاختلاف هذه التفاسير عن بعضها وإن كان أكثرها خضع لهذه العناصر، فلو أردنا أن نمثل بتفسير ابن عاشور: حياة المؤلف وثقافته ودراساته العلمية، تفسيره والمسألة الفقهية، تفسير ابن عاشور ومسائل العقيدة وعلم الكلام، تفسير ابن عاشور والحديث الشريف، موقفه من المفسرين السابقين، اللغة في تفسير ابن عاشور، مواقفه من الناسخ والمنسوخ... وغير ذلك.

وأثبتنا بالأمثلة والشواهد من التفسير موضوع الدراسة. وإذا رأينا الحاجة إلى مناقشة بعض الآراء ناقشناها حسب المستطاع، وأترك للقارىء الحكم على بعض المعالجات المتضمنة في هذه الدراسة وخاصة مناقشة الدراسات الحديثة الواردة في هذا المجال.

واستفدنا كثيراً من بعض المقدمات النافعة التي وضعها أصحاب التفاسير لتفاسيرهم، وأخصُّ بالذكر منهم محمد الأمين الشنقيطي في «الإيضاح بتفسير القرآن بالقرآن»، ومقدمات ابن عاشور في تفسيره، ومقدمات القاسمي في تفسيره وغيرهم.

وحاولتُ تخريج الأحاديث وذكر أرقامها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وحاولت عزو بعض نقول المفسرين إلى مصادرهم التي أخذوا عنها بذكر رقم الصفحة من الكتاب الذي أخذوا عنه، وذلك توثيقاً ودفعاً للناشطين من الباحثين والقراء للعودة إلى هذه المظان والمراجع إن أرادوا فلعلهم يجدون جديداً.

• وختاماً:

لا أدعي أن البحث آتسمَ بالكمال والخلوِّ من النقص والعيوب.

إنما أُقِرُّ بالنقص سلفاً فهذا من طبع البشر أولاً... وثانياً لم أستطع قراءة هذه التفاسير قراءة شاملة كي يكون البحث على نحوٍ من الشمولية والدقة. ولم تتوفر لدي المراجع الوفيرة السهلة التناول، عدا عن ضيق الوقت والانشغال في مناحٍ أخرى من مناحِ الحياة.

فمن وجد عيباً أو نقصاً، أو شروداً علمياً عن الحقيقة والصواب فليراسل الدار الناشرة مشكوراً مأجوراً إن شاء الله.

ولا بد لي في هذه الخاتمة أن أسجل خالص شكري لمن أسهم وساعد في إصدار هذه الدراسة بالتوجيه بالرأي الشفهي أو المكتوب أو تزويدنا ببعض من مراجعه المتوفرة بمكتبته الخاصة والعامة. أو ساعدني بمراجعة البحث وتدقيقه، وأخصّ منهم الأخ عبد المجيد طعمة الحلبي الذي أسهم إسهاماً هاماً في إعداد مخطط البحث، وجعله مستقرّاً على هذه الحال، عدا عن إسهامه في تقديمه المراجع والمصادر التي لولا هذه وتلك لكان البحث واجه صعوبات أكثر مما واجهه.

وإني لأرجو الله أن يحشرني في زمرة خدم القرآن الكريم يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم. وختاماً اللّهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً، وأوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وأن أعمل صالحاً ترضاه، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وكتبه: عبد القادر محمد صالح